الفصل الثالث

«موضوع التكليف بالقتال

من خلال قصة طالوت وداود وجالوت»

لقد تناول الشعراوي موضوع التكليف الإلهي بالقتال من خلال طلب الملأ من بني إسرائيل من نبيهم تعيين ملكًا قائدًا عليهم؛ ليقودهم في قتالهم، وهي القصة التي حكى القرآن الكريم عنها في قول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا

جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)[1]

ولقد استوقف الشعراوي في القصة السابقة موضوع الهدف من «التشريع الإلهي للقتال وآدابه» واستقى أفكاره من العبارات التي سردتها القصة، وطاف من وحيها في سور القرآن الكريم يجمع منها الآيات التي يدعم بها خواطره حولها، ثم يوائم بين المعاني بعضها مع البعض في نسقٍ واحد؛ ليعالج به بعضًا من الجوانب المهمة في هذا الموضوع، ولقد كانت الآية ٢٤٩ هي مبدأ انطلاقه الحقيقي في معالجة هذا الموضوع، وكان الجزء التالي من الآية ٢٥١ وهو قوله تعالى: (...وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)[2] هو ذروة مناقشته للموضوع.

---

[1] سورة البقرة، الآيات: ٢٤٦-٢٥١.

[2] سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

وتقص الآيات (٢٤٦ إلى ٢٥١) من سورة البقرة قصة قوم من أشراف بني إسرائيل سألوا نبي عصرهم[1] أن يختار لهم مَلِكًا[1]

---

[1] لقد أوضح الشعراوي أنه لا يعنينا تحديد اسم نبي هذا العصر، فسواء كان هذا النبي هو «يوشع أو حزقيل أو شمويل، أو أي واحد منهم، لا يعنينا ذلك؛ لأنَّ القرآن لم يذكر في أي عهد كانوا، المهم أنهم كانوا بعد (موسى) عليه السلام» الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٥٦.

ولكن أغلب كتب التفاسير عنيت بذكر وتوضيح اسم نبي ذلك العصر، وأسهبوا في ذلك، لذا فقد نبه الشعراوي بعدم الخوض في ذلك، ومن تلك التفاسير:

الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٢/ راجع ص٦١٠.

الزمخشري، الكشاف، ج١/ راجع ص٢٨٧.

البغوي، معالم التنزيل، ج١/ راجع ص١٦٩.

ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج١/ راجع ص٣٣٠.

الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٢/ راجع ص١٠٨.

الرازي، مفاتيح الغيب، ج٣/ راجع ص٤٨٤.

أبو حيان الأندلسي، النهر المار من البحر المحيط، ج١/ راجع ص٣٥٩، ط. دار الجبل بيروت.

القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١/ راجع ص١١٠٠.

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١/ راجع ص٤٤٣.

الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج١/ راجع ص١٧٥.

البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج١/ راجع ص٢٥٢، ط. دار صادر بيروت.

أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج١/ راجع ص٣٧٣، ط. مكتبة الرياض الحديثة.

الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج١/ راجع ص٥٥٦.

عليهم؛ ليقودهم للقتال في سبيل الله تعالى، وبخاصة لوجود علة ضرورية تحتم القتال، وهي أنهم أُخْرِجُوا من ديارهم وأبناؤهم، فجاء لهم الأمر والتكليف من الله – تعالى – بالقتال، وذلك في قوله

=ولم يعترض أحدهم على تحديد اسم نبي هذا العصر، فأخذوا يذكرون كل الروايات في تحديد ذلك وغيره.

ولقد ورد في العهد القديم أن هذا النبي، الذي ذهب إليه بنو إسرائيل، حتى يختار لهم ملكًا عليهم، هو صموئيل، ولقد وردت إشارات عديدة حول هذا الاسم، منها ما ورد في العهد القديم كالتالي: «وعرف جميع إسرائيل من دان إلى بئر سبع أنه قد اؤتمن صموئيل نبيًّا للرب» التوراة، سفر صموئيل الأول، الإصحاح الثالث، الآية: ٢٠.

[1] لقد ورد هذا الخبر في التوراة كالتالي: «(٤) فاجتمع كل شيوخ إسرائيل، وجاءوا إلى صموئيل إلى الرامة، (٥) وقالوا له: هو ذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا في طريقك، فالآن اجعل لنا ملكًا لنا كسائر الشعوب» التوراة، سفر صموئيل الأول، الإصحاح الثامن، الآيتان: ٤، ٥.

وتشير التوراة إلى إصرار بني إسرائيل على ضرورة أن يختار نبيهم ملكًا عليهم، فلقد ورد في التوراة التالي: «فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل، وقالوا: لا بل يكون علينا ملك (٢٠) فنكون نحن أيضًا مثل سائر الشعوب، ويقضي لنا ملكنا، ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا» التوراة، سفر صموئيل الأول، الإصحاح الثامن، الآيتان: ١٩، ٢٠، ط. دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

=ولقد أوجز القرآن الكريم ذكر تلك التفاصيل، وعمد إلى ذكر ما يخدم معاني وأحداث القصة، والتي سيقت للعبرة لا للحكاية، بينما أطنب العهد القديم في ذكر العديد من التفاصيل.

تعالى: (كُتِبَ) ولكنهم تولوا إلا القليل منهم، كما حكى القرآن الكريم.

ولقد كان جُلُّ تركيز الشعراوي في القصة على المرحلة الأخيرة منها، وهو مشهد انتصار الفئة المؤمنة بقيادة طالوت على الفئة الباغية بقيادة جالوت، وذلك دون اهتمام منه بتفاصيل القصة[1]، وتفصيل أحداثها، وهذا المشهد الذي ركز عليه الشعراوي في القصة يمثل المرحلة الرابعة والأخيرة منها، وهي التي تمثل «ذروة الحدث وبدء المعركة، وهي المرحلة الحاسمة في القصة»[2]

---

[1] لم يُسْهب الشعراوي في شرح بداية القصة، وإنما تناولها تناولًا سريعًا، وكذلك دون سرد منه لأي من القصص الواردة في شأن النبي المبعوث في ذلك العصر، ومن هو هذا النبي، وكيف قتل داود جالوت، وذكر أنَّ الخوض في مثل تلك التفاصيل لا يفيد؛ لذا نراه قد تناول المشاهد الأولى من القصة مجردة من الأعلام والأماكن، =مركزًا فقط على مضمون القصة، وعلى الموضوع الذي يشغل باله، ويريد أن يلقيه على آذان جمهوره من خلال هذه القصة.

وهذا الموقف من الشعراوي تجاه المرويات الواردة حول القصة قد اتبع فيه موقف ابن عطية، والذي نَوَّه فيه على أنه «قد أكثر الناس في قصص هذه الآية، وذلك كله لين الأسانيد؛ فلذلك انتقيت منه ما تنفك به الآية، وتعلم به مناقل النازلة، واختصرت سائر ذلك» ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج١/ص٣٣٧، ط. دار الكتب العلمية ببيروت.

[2] كاظم الظواهري، بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم، ص١١٣، الطبعة الأولى ١٩٩١م/١٤١٢هـ، ط. دار الصابوني دار الهداية.

فقلد كانت المرحلة الأولى في القصة «هي مقدمة القصة التي لخصتها من بدايتها إلى نهايتها...والمرحلة الثانية هي مرحلة التعريف والتكليف...والمرحلة الثالثة هي مرحلة التصعيد والمواجهة، وبين هذه المرحلة والتي قبلها مرحلة محذوفة، إذ إنه انتهى في السابقة إلى اختيار الملك عليهم وإقناعهم به»[1]

ولقد عالج الشعراوي من خلال هذه القصة بعض الجوانب الهامة في موضوع التكليف الإلهي بالقتال، وتناوله من خلال الأفكار التالية:

(أ) من آداب المقاتلين أثناء الخروج للقتال في سبيل الله تعالى.

(ب) صور الدفع الإلهي، وما الهدف من تشريع الإسلام للقتال.

(ج) ربط الشعراوي بين النظام الإلهي في كونه، والنظام الإلهي في خلقه المتمثل في المنهج الإلهي، مُمثلًا في ذلك التطبيق الراشد للتكليف الإلهي بالقتال.

(أ) بعض آداب التكليف بالقتال في سبيل الله تعالى:

ومع الآية (٢٤٩) من سورة البقرة يبدأ الشعراوي خواطره حول موضوع التكليف الإلهي بالقتال، فيحدثنا عن ضرورة اختبار القائد

---

[1] كاظم الظواهري، بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم، ص١١٣.

لجنوده قبل خوض القتال، وذلك لخطورة المهمة التي كلفوا بها، فالمقاتلون هم جنود الحق وحماته، ولا بُدَّ أن يكونوا على ثباتٍ من الأمر، حتى يتمكنوا من تحقيق النص، ولهذا أراد الله ابتلاء الجنود بالنهر لامتحان مدى صدقهم، فأخبرهم ملكهم عن الحق: (إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ)[1] «لقد أوضح لهم أنتم مقبلون على مهمة في سبيل الله، وهو سبحانه الذي سيجري عليكم الاختبار، ولست أنا؛ لأنَّ الاختبار يكون على قدر المهمة، أنا مشرف فقط على تنفيذ الأمر...إنهم عطاش...ولقد جاء الاختبار في منعهم مما تصبوا إليه نفوسهم...لماذا؟ لأنهم ساعة يرون ما يحبونه ويشتهونه، فسيندفعون إليه وينسون أمر الله، ومن ينس أمر الله ويفضل نفسه، فهو غير مأمون أن يكون في جند الله، لكن الذي يرى الماء ويمتنع عنه وهو في حاجة إليه، فهو صابر قادر على نفسه، وسيكون من جند الله؛ لأنه آثر مطلوب الله على مطلوب بطنه، وهو أهل لأن يُبْتَلَى»[2]

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٦٧-١٠٦٨.

ثم ينتقل الشعراوي إلى رصد وتحليل الاختبار الآخر الذي تعرضت له الفئة المؤمنة التي صمدت ونجحت في الابتلاء الأول، لتدخل بعد هذا الاختبار إلى ابتلاءٍ آخر عند رؤية جنود الأعداء. يقول الشعراوي: «...انظر كيف تكون مصافي الابتلاء في الجهاد في سبيل الله، حتى لا يحمل راية الجهاد إلا المأمون عليها الذي يعرف حقها (فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ) أي عندما عبروا النهر، واجتازوا كل الاختبارات السابقة قال بعضهم: (لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ)، لقد خاف بعض منهم من الاختبار الأخير، ولكن الذين آمنوا بالله لم يخافوا»[1]

وانتهى الشعراوي من كلامه السابق إلى تقسيم الفئة المؤمنة التي جاوزت النهر مع طالوت إلى قسمين: قسم عندما رأى جالوت وجنوده أصابه الخوف، وقسمٌ آخر رأوهم و«لم يخافوا أو ينقسموا عند الرؤية، لكنهم انقسموا عند المواجيد التابعة للرؤية...فقسم خاف وقسم لم يخف»[2]

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٦٨.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٦٨.

فلقد تناول الشعراوي بالتفصيل عملية امتحان الجنود، ومنها تحليله لحالة الخوف التي استشعرها جنود طالوت عند رؤية جنود أعدائهم؛ وذلك سعيًا منه لتوضيح الآداب التي ينبغي أن يتسلح بها المقاتلون في سبيل الله تعالى، وذلك عن طريق استحضار الشعراوي لما ورد في النص القرآني معالجًا لهذه القضية. يقول الشعراوي: «الذين خافوا قالوا: (لَا طَاقَةَ[1] لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ) مروا بثلاث مراحل؛ المرحلة الأولى: هي إدراك لجالوت وجنوده، والثانية: هي وجدان متوجس من قوة جالوت وجنوده، والأخيرة: هي نزوع إلى الخوف من جالوت وجنوده»[2]

ويقف الشعراوي محللًا لحال الفئة المؤمنة التي لم تفزع لرؤية العدو، وما تحلت به من الآداب الإيمانية، التي مكنتها من هذا الثبات في ميدان القتال، وحققت لها النصر في سبيل الله – تعالى – يقول الشعراوي: «لقد خاف بعض منهم من الاختبار الأخير، ولكن الذين آمنوا بالله لم يخافوا، ويقول الحق: (قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ[3]

---

[1] (لَا طَاقَةَ) أي «لا قوة، يقال: أطقت الشيء إطاقة، وطوقًا، مثل أطعت طاعة وإطاعة وطوعًا» الزجاج، معاني القرآني وإعرابه، ج١/ص٣٣١، ط. دار الحديث القاهرة.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٦٩.

[3] «ظننت في اللغة بمعنى أيقنت»، الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج١/ص٣٣١.

أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ[1] مِنْ فِئَةٍ[2] قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ[3])...كأنهم أدخلوا ربهم في حسابهم، فاستهانوا بعد وهم، لكن الفئة السابقة عزلت نفسها عن ربها، فرأوا أنفسهم قلة فخافوا، لقد كان مجرد ظن الفئة المؤمنة أنهم ملاقو الله قد جعل

=ولذا فالظن هنا بمعنى «اليقين وهو فيما لم يقع بعد، ولا خرج إلى الحس» ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج١/ص٣٣٦.

[1] وقوله تعالى حكاية عنهم: (مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ) أي «كثيرًا غلبت فئة قليلة (فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ) يعني بقضاء الله وقدره» الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٢/ص٦٣٨.

هذا ولقد ذكر ابن عطية أن التعبير بجملة (كَمْ مِنْ فِئَةٍ...الآية) هو من باب «التحريض بالمثال وحض واستشعار للصبر، واقتداء بمن صدق ربه» ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج١/ص٣٣٧.

[2] ولقد ذكر الزجاج أنه يقال للفرقة: «فئة من قولهم فَأَوْتُ رأسه بالعصا، وفأيْتُ إذا شققته، فالفئة الفرقة من هذا» الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج١/ص٣٣٢.

[3] وتدل الآية في قوله تعالى: (قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) على «الخلص منهم الذين نصبوا بين أعينهم لقاء الله وأيقنوه» الزمخشري، الكشاف، ج١/ص٢٩١.

أو على الذين «يوقنون بلقاء الله – تعالى – بالبعث ويتوقعون ثوابه، وإفرادهم بهذا الوصف لا ينافي إيمان الباقين، فإن درجات المؤمنين في التيقن والتوقع متفاوتة» أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج١/ص٣٧٦، أو هم الذين «علموا أنهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله تعالى»

البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج١/ص٢٥٥.

لهم هذه العقيدة، وإذا كان هذا حال مجرد الظن، فما بالك باليقين»[1]

ولقد سعى الشعراوي من خلال تحليله السابق لثبات القليل من الفئة المؤمنة أمام الاختبارات الإلهية إلى توظيف هذا المشهد من القصة، كمثل حي للمجاهدين في ضرورة تمثل أهم آداب القتال، وهي التزام الصبر والثقة بالله تعالى، ثم تأصيله لهذا الأدب باستحضاره ما ورد حول هذا في النص القرآني، فنراه قد ربط بين ما تحلت به الفئة المؤمنة في جيش طالوت من التزام أدب حسن الظن بالله تعالى، وأدب الصبر في ميدان القتال، وبين ما ورد في القرآن الكريم مدعمًا لهذه الآداب. يقول الشعراوي: «ونعرف أنَّ هناك معارك يفوز فيها الأقدر على الصبر، ودليلنا على ذلك قول الحق: (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ)[2] هذا هو الوعد، ولكن إذا صبرتم كم يكون المدد؟ يقول الحق: (بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)[3] فكأنَّ البدء بثلاثة آلاف

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٦٨-١٠٦٩.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١٢٤.

[3] سورة آل عمران، الآية: ١٢٥.

لمساندة أهل الإيمان، ويزيد العدد في المدد إلى خمسة آلاف إن صبروا واتقوا، إذن المدد يأتي على قدر الصبر»[1]

ولقد كان استحضار الشعراوي لهذه الآيات القرآنية من النص القرآني؛ كي يربط بين ماضي أمة التوحيد وحاضرها في نسيجٍ واحد، يدلل به على ضرورة تمثل المجاهدين لهذا الأدب، حينما يكلفوا بالقتال في سبيل الله تعالى.

ثم نرى الشعراوي يمر مرورًا سريعًا، ودون وقوفٍ طويل عند قول الله تعالى: (وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)[2] وكأنه يبادر الخطى ليواصل تناوله لما يهدف إليه من معالجته لموضوع التكليف الإلهي بالقتال، وما يمكن أن يحلق به من معانٍ حول هذا الموضوع، فنراه ينتقل إلى الآية التي تليها، وهي المعبرة عن المرحلة الأخيرة والفاصلة في القصة، وهي قول الله تعالى: (فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٠.

[2] سورة البقرة، الآية: ٢٥٠.

عَلَى الْعَالَمِينَ)[1] فيتوقف الشعراوي عند قوله تعالى: (وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) متناولًا بالتفصيل صور الدفع الإلهي، والهدف من تشريع القتال.

(ب) صنوف الدفع الإلهي، والهدف من التشريع الإلهي للقتال:

ويستوقف الشعراوي قوله تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)[2] فلقد عالج من خلاله مضامين مهمة، فبدأ حديثه بأن الحرب والقتال ضرورة اجتماعية...يقول الشعراوي: «(وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)...إنَّ الحق يأتي هنا بقضية كونية في الوجود، وهي أنَّ الحرب ضرورة اجتماعية، وأنَّ الحق يدفع الناس بالناس، وأنه لولا وجود قوة أمام قوة لفسد العالم، فلو سيطرت قوة واحدة في الكون لفسد...»[3]

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

[2] سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٢.

ثم يعمق الشعراوي هذا المضمون من خلال استقراء التاريخ ماضيه وحاضره وتوظيفه في توضيح القضية، مع محاولة إلقاء الضوء حول ما نحياه من سلبيات في حياتنا الاجتماعية والسياسية، وما ينتج عنه من ذبذبة وعدم استقرار في المجتمعات الإنسانية، يقول الشعراوي: «فالذي يعمر الكون هو أن توجد فيه قوى متكافئة، قوة تقابلها قوة أخرى، ولذلك نجد العالم دائمًا محروسًا بالقوتين العظميتين، ولو كانت قوة واحدة لعَمَّ الظلال، ولو تأولنا التاريخ منذ القدم لوجدنا هذه الثنائية في القوى تحفظ الاستقرار في العالم، في بداية الإسلام كانت الدولتان العظيمان هما الفرس في الشرق، والروم في الغرب، والآن سقطت قوة روسيا من كفة ميزان العالم، وتتسابق ألمانيا واليابان ليوازنا قوة أمريكا»[1]

وبعد هذه التقدمة لقضية الدفع وفائدته في حفظ التوازن الإنساني في المجتمعات الإنسانية، يُطْلِعَنَا الشعراوي على صور من الدفع، فتارة يكون الدفع «بأيدي خلقه، كما قال سبحانه: (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)[2] إنه دفع الله المؤمنين ليقاتلوا الكافرين، ويعذب الحق الكافرين بأيدي المؤمنين»[3]

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٢.

[2] سورة التوبة، الآية: ١٤.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٣.

وقبل أن ينتقل الشعراوي إلى ذكر الصورة الثانية من صور الدفع، نراه يحدثنا من خلال الصورة الأولى التي ذكرها، عن أغراض الدفع وأسبابه، حيث أنَّ تشريع القتال محكوم بحيثيات وأهداف، وهذا ما يريد الشعراوي أن يوضحه لجمهوره، يقول الشعراوي: «عندما نتأمل القول الحكيم: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) فإننا نجد مقدمة سابقة تمهد لهذا القول، لقد أخرجوا من ديارهم وأبنائهم، فكان هذا هو مبرر القتال، وتجد آية أخرى أيضًا تقول: (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ[1] وَبِيَعٌ[2] وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)[3]»[4]

ثم جمع الشعراوي بين الآية (٤٠) من سورة الحج، والآية الخاصة بطالوت وجنوده في سورة البقرة وهي الآية (٢٥١) وذلك حتى يوضح علة الدفع، وكذلك صوره. يقول الشعراوي: «صحيح أننا

---

[1] صوامع: هي منازل الرهبان، الإمام/ أبو بكر محمد بن عزيز السجستاني، «غريب القرآن» المسمى بنزهة القلوب، ص١٤١، ط. محمد علي صبيح وأولاده.

[2] بيع: جمعه بيعه، وهي متعبد النصارى، المرجع السابق ص٥.

[3] سورة التوبة، الآية: ٤٠.

[4] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٤.

نجد وحدة جامعة بين الآيتين وهي الخروج من الديار»[1] رغم أنَّ السياق مختلف في الآيتين، فالسياق الذي يأتي في سورة البقرة، في الآية التي نحن بصدد خواطر الشعراوي حولها تدل على «أناس يحاربون بالفعل، والسياق الذي يأتي في سورة الحج عن أناس مؤمنين برسول الله ﷺ، خرجوا وهم المستضعفون من مكة؛ لينضموا إلى إخوتهم المؤمنين في دار الإيمان؛ ليعيدوا الكرة، ويدخلوا مكة فاتحين»[2]

وانطلاقًا من هذا المغزى بيَّن الشعراوي أنَّ الخروج نفسه هو نوع من الدفع؛ وذلك لأنَّ الدفع له أشكال عدة. يقول الشعراوي: «إذن فمرة يكون الدفاع بأن تفر لتكر...ومرة يكون الدفاع بأن تقاتل بالفعل...فالآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها هنا تفيد أنهم قاتلوا بالفعل، والآية الثانية تفيد أنهم خرجوا من مكة؛ ليرجعوا إليها فاتحين»[3]

ثم سعى الشعراوي موضحًا من خلال سيرة النبي ﷺ في قتاله الكفار، وكذلك من خلال ما أيدها من النص القرآني، كيف يكون

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٤.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٤.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٦.

الخروج أحد أنواع الدفع، يقول الشعراوي: «فالخروج نفسه نوع من الدفع، لماذا؟ لأنَّ المسلمين الأوائل لو مكثوا في مكة، فربما أفناهم خصومهم فلا يبقى للإسلام خميرة، فذهبوا إلى المدينة، وكونوا الدولة الإسلامية، ثم عادوا منتصرين فاتحين: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)[1] »[2]

وهكذا قرن الشعراوي في توضيحه السابق بين تناول صور الدفع، وذكر حيثيات الدفع وأهدافه، وأراد من خلال ذلك أن يؤكد أنَّ الدفع أو القتال لا بُدَّ أن يكون له سبب، وساق لتوضيح هذا من النص القرآني آيات سور التوبة والحج والنصر السابقة، وذلك في توضيحه لقوله تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ[3] اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ...)[4]

ويعود الشعراوي فيحدثنا عن قيمة الدفع في حفظ قيم الخير والعدل والحق التي ترعاها دور العبادة، وذلك كما أشارت الآية

---

[1] سورة النصر، الآية: ١.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٤.

[3] «دفع»: لقد وردت قراءة أخرى وهي «دفاع» وهي الواردة في سورة البقرة، وكذا الواردة في سورة الحج الآية (٤٠) «فقرأ المدنيان ويعقوب بكسر الدال وألف بعد الفاء، وقرأ الباقون (دفع) بفتح الدال وإسكان الفاء من غير ألف» ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج٢/ص١٧٧، ط. دار الصحابة بطنطا.

[4] سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

(٤٠) في سورة الحج من قول الله تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا)[١] والتي استشهد بها في توضيح صور الدفع والهدف منه. يقول الشعراوي: «فالأديرة والكنائس والصوامع – حين كانت – والمساجد الآن هي حارسة القيم في الوجود؛ لأنها تذكرك دائمًا بالعبودية»[٢]

ثم بيَّن الشعراوي أنَّ ما أجملته الآية في قوله – تعالى – من سورة البقرة (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ)[٣] قد «شرح ذلك في قوله تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا)[٤] فهذه الأماكن هي التي تبقي أصول القيم في التدين»[٥]

ولذلك نجد الشيخ/ السيد محمد رشيد رضا حينما تحدث عن أهم قواعد الحرب والسلام في دين الإسلام وشواهدها في القرآن الكريم، نراه قد ذكر في شرحه للقاعدة الثانية التالي: «القاعدة الثانية: في الغرض من الحروب ونتيجتها، هي أن تكون

---

[١] سورة الحج، الآية: ٤٠.

[٢] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٥.

[٣] سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

[٤] سورة الحج، الآية: ٤٠.

[٥] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٦.

الغاية الإيجابية من القتال – بعد دفع الاعتداء والظلم واستتباب الأمن – حماية الأديان كلها من الاضطهاد فيها أو الإكراه عليها، وعبادة المسلمين لله وحده، وإعلائهم كلمته، وتأمين دعوته، وتنفيذ شريعته، وهي في مصلحة البشر كلهم، وإسداء الخير إليهم لا الاستعلاء عليهم والظلم لهم»[1]

فهناك أسباب إذا توافرت لا بُدَّ للمؤمنين أن يباشروا القتال والدفع حتى يتحقق الأمن وتكفل جميع الحريات بما فيها حرية الأديان، وهذه وتلك هي من أهم الغايات التي شرع من أجلها القتال.

في هذا المعنى يقول دكتور محمد البهي: «...قد أذن القرآن في توجيه الرسالة الإلهية للمؤمنين بأن يباشروا القتال ضد الأعداء عند تحقق واحد من الأمرين:

الأمر الأول: عندما يعتدي عليهم من يسلبهم أموالهم أو بإخراجهم من ديارهم أو بالتربص بهم وإيذائهم...

---

[1] السيد محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، ص٢٧٦، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

الأمر الثاني: عندما يُعْتَدَى على دين الله والإيمان به؛ فتُنْتَهَك بيوت الله، أو تُهْدَم، أو تُحَرَّف رسالة الله في أجلى صورة لها، وهي تلك الصورة التي يعرضها آخر كتاب نزل من عند الله: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ...)[1] »[2]

وتأكيدًا من الشعراوي على ضرورة توفر حيثيات للدفع، نراه يعرج إلى قضية مهمة، وهي لماذا تطول المعارك في الدنيا؟ وهو من خلال هذا الطرح يريد أن يُظهر عدل التشريع الإسلامي في التكليف بالقتال، حيث أنه تشريع مهم لحفظ الأمن والحقوق في الكون، أمَّا إذا خلا القتال من أهدافه السامية، أصبح هناك خلل في المعركة، وغاب في ميدان القتال المناصر للحق، ولهذا تطول المعارك؛ وذلك لأنَّ الأصل في دفع الله الناس بعضهم ببعض هو أنَّ هناك «أناسًا يريدون الشر، وأناسًا يريدون الخير، فمن يريد الشر يدفعه من يريد الخير، وإذا وقعت المعركة بهذا الوصف فإنَّ يد الله لا تتخلى عن الجانب المؤمن الباحث عن الخير، فهو سبحانه القائل:

---

[1] سورة الحج، الآية: ٤٠.

[2] دكتور/ محمد البهي، القرآن...والمجتمع، ص١٨، ط. الثانية ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، طبعة مكتبة وهبة.

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)[1] أي أن المعركة لا تطول»[2]

ويحلل الشعراوي ما أجمله سابقًا - حول سبب طول المعارك - أنَّ المعركة تكون بين «باطل وباطل، فليس أحدهما أولى بأن ينصره الله»[3] ويرى الشعراوي بأنَّ أصناف المعارك في الكون إن وجدت «توجد بين حق وباطل، أو بين باطل وباطل، والمعركة بين الحق والباطل لا تطول؛ لأنَّ الباطل زهوق»[4]

ولا يفت الشعراوي أن يُنَوِّه من وحي الموضوع المثار على سلبيات الواقع المعاصر حول هذه القضية، وقد ذكرت فيما سلف أنَّ هذا يُعد من أهم سمات اللون الموضوعي في التفسير القرآني، كما أوضح السيد محمد باقر الصدر. يقول الشعراوي: «وكذلك نرى في معارك العصر الحديث أنَّ المعركة تطول وتطول؛ لأننا لا نجد القسم الثالث الذي جاء في قوله سبحانه: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٤٠.

[2] سورة الحج، الآية: ٤٠.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٦.

[4] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٦.

بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)[1]، إنَّ الحق سبحانه وتعالى يأمر عند اقتتال طائفتين من المؤمنين أن يُصْلِحَ بينهما قوم مؤمنون، فإن تعدت إحداها على الأخرى، ورفضت الصلح، فالحق يأمر المؤمنين بأن يقاتلوا الفئة التي تتعدى إلى أن ترجع إلى حكم الله، فإن رجعت إلى حكم الله، فالإصلاح بين الفئتين يكون بالإنصاف؛ لأنَّ الله يجب العادلين المنصفين»[2]

ثم يردف الشعراوي كلامه السابق بتحليل مهم، ملخصه أنَّ خيبة العالم المعاصر هي في عدم دفع الفساد في الحروب بين خصمين كلاهما على باطل...«فكلاهما أهواء تتعارك...ومن الواجب أن تتدخل الفئة القادرة على الإصلاح، وإلا فسيدخل العالم بسبب ذلك في دوامة من المشاكل بلا نهاية»[3]

وقبل أن أواصل تناول الشعراوي لموضوع التكليف بالقتال، فقد استحضرت ما قاله بعض المفسرين في تأويلهم لمعنى الدفع.

فلقد وجدت الإمام، الطبري يشرح معنى الدفع في قوله تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ)[4] بأنه «لولا أنَّ

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٧.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٧.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٧-١٠٧٨.

[4] سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

اللّٰه يدفع ببعض الناس وهم أهل الطاعة له[1] والإيمان به بعضًا، وهم أهل المعصية للّٰه والشرك به كما دفع عن المتخلفين عن طالوت يوم جالوت من أهل الكفر باللّٰه والمعصية له...لفسدت الأرض»[2]

ونجد الزمخشري في تفسيره قد عمم معنى الدفع والمقصود به من حيث رد اللّٰه – تعالى – الشر بالخير في الكون؛ حتى تستقيم الحياة، وذلك دون حصر معنى الدفع في أنه دفع المؤمنين الكافرين كما ذكر الطبري، وبذلك فقد أعطى الزمخشري شمولية للمعنى، يقول الزمخشري: «ولولا أنَّ اللّٰه يدفع بعض الناس ببعض، ويكف بهم فسادهم لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها، وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض»[3]

وكذلك ذكر ابن عطية في تفسيره قيمة الدفع الإلهي في حياة الناس بأنَّ اللّٰه تعالى «لا يخلي الزمان من قائم بحق، وداعٍ إلى مقاتل عليه، إلى أن جعل ذلك في أمة محمد ﷺ إلى قيام الساعة، له الحمد كثيرًا»[4]

---

[1] ولقد أورد البغوي تقريبًا ما أورد الطبري في شرح معنى الدفع، وقصر أيضًا معنى الدفع على أنه دفع اللّٰه – تعالى – المؤمنين الكافرين، يقول البغوي: «ولولا دفع اللّٰه الناس بجنود المسلمين لغلب المشركون على الأرض، فقتلوا وخربوا المساجد والبلاد ...» البغوي، معالم التنزيل، ج١/ص١٧٧.

[2] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٢/ص٦٤٦.

[3] الزمخشري، الكشاف، ج١/ص٢٩٢.

[4] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج١/ص٣٣٧.

ولقد جمع الرازي بين الرأيين السابقين في تفسيره لمعنى الدفع الإلهي في أنه يشمل الأمور الدينية والدنيوية. يقول: «فأمَّا المدفوع عنه فغير مذكور في الآية، فيحتمل أن يكون المدفوع عنه الشرور في الدين، ويحتمل أن يكون المدفوع عنه الشرور في الدنيا، ويحتمل أن يكون مجموعهما»[1]

ولقد عرض الإمام/ القرطبي اختلاف العلماء في الناس المدفوع بهم الفساد من هم، وتحدث عن قضية الأبدال[2]، ولكن لم أجد أحدًا من المفسرين قد تناولها، وأحسبها أنها ليست من حقائق العلم.[3]

=ومن مدرسة الشيعة في التفسير نجد الإمام، الطبرسي قد أورد آراء الأئمة الطبري والزمخشري والبغوي وابن عطية في شرح المقصود من الدفع الإلهي، ولكن دون تخصيص لأي منها، راجع الطبرسي، جامع البيان في تأويل القرآن، ج١/ص١١٧-١١٨.

[1] الرازي، مفاتيح الغيب، ج٣/ص٥١١.

[2] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، راجع ج١/ص١١٧٠-١١٧٢.

[3] لقد ذكر محمد ابن السيد درويش - في كتابه أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب - أنَّ حديث الأبدال في هذه الأمة ثلاثون رجلًا قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلًا، رواه أحمد عن عبادة بن الصامت، وله روايات وطرقها ضعيفة، ص٧٧.

openkan.com

ولقد حدد أبو حيان الأندلسي أنَّ «المدفوع بهم المؤمنون، والمدفوعون الكفار، وفساد الأرض بقتل المؤمنين، وتخريب المساجد، وتطبيق الأرض بالكفر، ولكنه – تعالى – لا يخلي الأرض من قائم الحق»[1]

وذكر أبو السعود أنه «لولا دفع الله الناس الذين يباشرون الشر والفساد (ببعض) آخر منهم بردهم عما هم عليه بما قدر الله – تعالى – من القتل كما في القصة المحكية أو غير...(لفسدت الأرض) وبطلت منافعها، وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض ويصلحها، وقيل: لولا أنَّ الله ينصر المسلمين على الكافرين لفسدت الأرض بعبثهم وقتلهم المسلمين»[2]

وانطلاقًا من هذا العرض السريع لبعض آراء المفسرين القدماء، نستطيع القول بأنَّ لبنات أفكار الشعراوي أساسها من وحي ما قرره جمهرة المفسرين القدامى، إلا أنه اختلف عنهم في

=كما ضعف الألباني أحاديث الأبدال جميعها في كتابه ضعيف الجامع الصغير تحت أرقام ٢٢٦٥، ٢٢٦٦، ٢٢٦٧، ٢٢٦٨، ٢٢٦٩، ٢٢٧٠.

[1] أبو حيان الأندلسي، النهر الماد من البحر المحيط، ج١/ص٣٦٧.

ولقد أورد البيضاوي مثيل رأي أبو حيان الأندلسي، راجع البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج١/ص٢٦٥.

[2] أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج١/ص٣٧٩.

طريقة العرض والتناول، والتي تنطلق من رعاية متطلبات الفكر المعاصر الذي يحياه الشعراوي ويُمْلِيه الوقت، والذي يُهَاجَم فيه شريعة القتال في الإسلام؛ نظرًا لوجود لبس في فهم هذا التكليف عند البعض، فكان ولا بُدَّ أن يُعالج؛ لأنها محل هجوم من كثير من المستشرقين وغيرهم من المفكرين، وكذلك محل استغلال سيئ من البعض الذين تجرءوا علي الدين بفهم سقيم؛ فخرج منهم من يحمل السلاح على الناس باسم الدين، فكان ما سبق عرضه هو ما دفع الشعراوي إلي ضرورة التناول الذي يُرَاعِي قضايا العصر في إطار التصحيح وإزالة ما قد علق بالأفهام من اللبس وسيئ الفهم.

أما معنى الدفع عند أرباب المدرسة الحديثة في التفسير فمنهم من كان معنى "الدفع الإلهي" عنده يشمل دائرة الحياة بمختلف أشكالها، وأنه لولا الدفع الإلهي لما دارت عجلة الحياة بفنون التقدم والتطور، ولمكث الناس بعيدين عن ميادين الإبداع والازدهار، ولذا أرى أنَّ تفسير قوله تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ...الآية) يسع كل ما ذكر من تفاسير توضحه، يسع وجود قوى الخير التي تنبثق من نور الإيمان بإرادتها القوية في الحفاظ، والبقاء على كل صور الخير، وفي حمايتها للحق والاستنفار من أجله، وكذلك حماية القيمة الحياتية بمختلف ميادينها، وكذلك الحفاظ على القيمة الدينية، وكلاهما يكون مصانًا بالحفاظ على الحق، فكما ذكر الشيخ/ محمد

الغزالي أنَّ «...بقاء الحق مرهون بشجاعة رجاله، وتفانيهم في إعلاء رايته، واستبقاء كلمته»[1]

ولقد عَمَّمَ كذلك الشيخ/ الغزالي قضية «الدفع الإلهي» فجعلها تشمل كل الميادين في الحياة، التي تحتاج الدفاع فيها عن الحق والعدل والإنصاف، وجعل من ضمن هذه الميادين ميدان القتال، الذي اعتبره الساحة الكبرى في درء المفاسد وحماية الحقوق.

بينما نجد الشعراوي مهتمًّا بإلقاء الضوء على حيثيات القتال والهدف منه، فتناول الصورة الكبرى من الدفع الإلهي وهي شريعة القتال، وأخذ يعالج بعض القصور في فهم هذه الشريعة الحكيمة.

وركَّز الشعراوي على مضمون مهم، وقد نَوَّه عنه العديد من المفسرين والمفكرين المعاصرين، وهو أنَّ التكليف بالقتال في الإسلام ليس أمرًا همجيًّا، وإنما هو شريعة لها آداب وحيثيات وأهداف.

فأراد الشعراوي بالمسائل التي أثارها أن يعمق في نفوس جمهوره أنَّ موضوع التكليف بالقتال ما شرع إلا للدفاع عن الفضيلة، وأنه لولا شريعة القتال لضاع الحق، وساد الباطل،

---

[1] محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، تفسير سورة البقرة، ص١٩.

ولاندثرت القيم الأخلاقية، ولماج الناس بمفاسد الأخلاق، ولارتكس الإنسان إلى مرحلة دون الغاب، فالقتال المشروع الذي يرد الظلم، ويحقق الأمن هو ما هدف إليه الإسلام الحنيف، وفي هذا يقول الشيخ، محمد أبو زهرة: إنه لا بُدَّ للأديان «أن تكون لها شوكة ترد أذى المعتدين، وتفُلُّ حدة المعتدين حتى لا يذهب الخير، ولا يبقى إلا الشر، وإذا كان الذين يدعون إلى الإثم والعدوان لا ينفكون عن اعتدائهم، فيجب أن يقفوا عند صدهم؛ ولذلك أذن الله بالقتال دفاعًا عن الفضيلة...»[1]

فليست شريعة القتال كما هو شائع أنه الغضب والعنف والعدوان، أو أنَّ الأديان أو الإسلام، قد انتشروا بحَدِّ السيف «فيضع القتال في موضع الإقناع»[2] ولا أنه الإرهاب الفكري أو الميداني، إنما هي القوة التي تحافظ علي الحقوق وتسعى لرعاية الأمن، وترعى الخير وتحافظ على قواه، فتحفظ الأمن للخلق، وتدفع عنه كل شر؛ وهذا ما أراد الشعراوي أن يؤكد عليه من خلال

---

[1] اللواء الركن/ محمود شيت، د/ عبد الحليم محمود، الشيخ/ محمد أبو زهرة، إرادة القتال والجهاد في سبيل الله، ص٥٢، ط. دار التحرير للطبع والنشر، سلسلة كتاب الجمهورية الديني.

[2] عباس محمود العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ط. نهضة مصر، ص١٦٦.

توضيحه لآداب شريعة القتال، والتجلية عن أهدافها السامية، ويمكننا القول بأنَّ الشعراوي قد سلك في هذا مسلك التركيز على توضيح المقاصد الشرعية من الأحكام التكليفية؛ حتى لا تجتزئ الآيات أو الأحاديث من سياقاتها، وتُنتَزَع من النص انتزاعًا يُخِلُّ بالمعني والهدف الأساسي من التشريع الرباني، كما هو حاصل اليوم عند بعض المنحرفين عن صراط الله المستقيم، وهذا يُعد تيارًا فكريًّا عصريًّا اقتضى الاهتمام به؛ ما تعَرَّض له الفكر الإسلامي من هجمات تتسم بطابع الجهل بالمقصد الشرعي من التكليف الإلهي، وإن كان الحديث عن الرؤية المقاصدية للأحكام الشرعية قديماً إلا أنه قد تبلور وبدا على هيئة منهجية لا يمكن الاستغناء عنها لمن يطلب الفهم السديد للوحي الشريف.

وهو ما أراد الشعراوي أن يشير إليه بكلماته وتحليلاته...في غير تصريح، ولعلي عرجت إلى بعض الكتابات في قضية التكليف بالقتال؛ لأنَّ الشعراوي لم يُعْنَ في خواطره بتفاصيل قصة طالوت وداود وجالوت – كما فعلت كتب قدامى المفسرين – بقدر ما عَناه الموضوع الذي حملته القصة كعبرة لأمة القرآن الكريم، وعالج موضوعه من منطلق أنَّ على أُمَّة الإسلام دور مهم، وهو ضرورة إتقان الفهم عن الله – تعالى – من حيث الوعي بمقاصد التكليف

الإلهي، فإذا ما احتاجت أُمَّة الإسلام إلى اللجوء إلى القتال في سبيل الدفاع عن الحق، ورد الظلم، فلتعلم أنَّ هذا هو ديدن الواقع حينما يعلو فيه الفساد على أيدي المفسدين؛ ليقوم ثوار على الفساد تؤيدهم حقيقة عقدية تبعث في أرواحهم شرارة الإقدام لمحو الفساد وإحلال الصلاح، وفي هذا يقول الشيخ/ محمد أبو زهرة أنَّ الفضيلة في الإسلام هي «رد الاعتداء، ومنع الخضوع للأقوياء، ولذلك شرع القتال لمنع الفساد في الأرض، إذ أنه لو ترك الأشرار يعبثون فسادًا من غير رادع يردعهم، ولا مانع يمنعهم لعَمَّ الفساد البر والبحر، ولصار هو الهوان الذي يسيطر، وإنَّ الرحمة بالأشرار قسوة بالأخيار...ورُبَّ تسامح يحوي في ذاته أكبر الجرائم..ولذلك قال الله تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)[1] »[2]

ولولا هذا التكليف الإلهي لاندفع المرء إلى التهاون في حق حياته، أو حقه في حرية ممارسة ما يعتقد ويؤمن، أو خسران كل حقوقه، ولهذا يقول العقاد: إنَّ «حق السيف مرادف لحق الحياة،

---

[1] سورة البقرة، الآيات: ٢٥١.

[2] اللواء الركن/ محمود شيت خطاب، د/ عبد الحليم محمود، الشيخ/ محمد أبو زهرة، إرادة القتال والجهاد في سبيل الله، ص٥٣.

وكلما أوجبه الإسلام، فإنما أوجبه لأنه مضطر إليه أو مضطر إلى التخلي عن حقه في الحياة، وحقه في حرية الدعوة والاعتقاد...»[1]

وهكذا قد اتضح معنى الدفع الإلهي عند القدماء والمحدثين من المفسرين والعلماء، فمنهم من عمَّمَ معنى الدفع الإلهي، وجعله يشمل الأمور الدينية والدنيوية، ومنهم من قصره على الأمور الدينية، ولقد تحدث الشعراوي عن القتال باعتباره الساحة الكبرى في درء المفاسد وحماية الحقوق، وأنه الصورة الكبرى لمعنى الدفع الإلهي، وانصب حديثه كله على هذه الصورة.

(ج) ربط الشعراوي بين النظام الإلهي في كونه، والنظام الإلهي في خلقه – أي المنهج الإلهي – المتمثل في التطبيق الراشد للتكليف بالقتال:

ومن خلال هذا العنصر يوضح الشعراوي قيمة التكليف الإلهي بالقتال في الحفاظ على انضباط حياة البشر واستقرارها وانتظامها كانتظام الناموس الكوني حول الإنسان.

أي أنَّ اللّه – تعالى – يُشَرِّعُ ما يحفظ على الإنسان استقراره، ويُبْقِي له الصالح من الأمور، ويدرأ عنه الطالح منها، ولكن بعض

---

[1] العقائد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص١٦٩.

الناس يعبثون بالتكاليف الإلهية فيعيثون في الأرض فساداً، والفساد يأتي فيما أطلقت فيه يد الإنسان، وفي هذا يقول الشعراوي في قوله تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ)[1] «نعم تفسد الأرض فيما جعل الله للإنسان يداً فيه، أمَّا الشيء الذي لم يجعل الله للإنسان يداً فيه، فستظل النواميس كما هي لا يؤثر فيها أحداً، فلا أحد يؤثر في الشمس أو القمر أو الهواء أو المطر، إنما الفساد جاء فيما للإنسان يد فيه»[2]

فالشعراوي بحديثه السابق يريد أن يعطي لجمهوره مثالًا حيًّا بالنظام الكوني في دقته، وانضباطه الذي لم يفسد يومًا؛ وذلك لأنه من صنع الله – تعالى – الذي أتقن صنع كل شيء خلقه، وجعل في نظير هذا النظام الكوني النظام التشريعي، فأراد أن يلفت نظر جمهوره إلى أنَّ الذي وضع وسَيَّر النظام الكوني، هو الذي شرع النظام الإنساني الذي يجب أن يُذْعِنَ له كل مؤمن مُكَلَّف، فالكون يسير بنظام الله – تعالى – ولذا هو يسير في غاية الدقة والانضباط، والإنسان يترك شرع الله – تعالى – ويسير وفق هواه؛ ولذا يُوجَدُ الفساد من بعض الناس، الذين أغوتهم نفوسهم فحادوا عن التزام التكليف الإلهي، فعاثوا بالفساد في الأرض، فلزمهم

---

[1] سورة البقرة، الآيات: ٢٥١.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٨.

التقويم؛ وذلك لحفظ النظام الإنساني، ولأجل هذا يدفع الله بالصالحين حتى يردوا الفاسدين، الذين يشذون بتصرفاتهم الخارجة عن منهج الله – تعالى – عن جملة النظام الكوني الكلي، الذي يسير وفق مراد الله تعالى. يقول الشعراوي: «انظر إلى الكون، إنك تجد المسائل التي لا دخل للإنسان فيها مستقيمة على أحسن ما يكون، وإنما يأتي الفساد من النواحي التي تدخل فيها الإنسان بغير منهج الله، ولو أنَّ الإنسان دخل فيها بمنهج الله لاستقامت الأمور كما استقامت النواميس العليا تمامًا»[1]

ثم يحلق الشعراوي في كون الله – تعالى – وتنطلق كلماته لتدعونا إلى التأمل في كون الله – تعالى – ونظامه، ويستحضر من النص القرآني في صورة موضوعية طريفة بعض الأمثلة من اللوح الكونية البديعة، التي عرضها القرآن الكريم؛ وذلك ليستحث بها الشعراوي العقول، فتعمل مخيلتها فتنشط وتتدبر وتتأمل، وهي طريقة وعظية مؤثرة؛ وذلك لأنَّ الانتقال من حيز الإنسان إلى براح الأكوان في لمحة، هي وسيلة من وسائل الدعوة المؤثرة في النفوس، والتي وَظَّفَهَا الشعراوي بمهارة؛ ليعمق المعنى المراد الذي يسعى إلى امتثال الجمهور له، وهو:

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٨.

ضرورة الأخذ بشريعة القتال عند شيوع الظلم والفساد؛ حتى لا يفسد النظام الإنساني، وبالتالي النسق الكوني، والذي يُعد الإنسان جزءًا منه.

ودعوة المؤمنين المكلفين بالأخذ بشريعة الله – تعالى – في كل الأمور حتى تستقيم حياتهم وتنتظم، ككون الله تعالى.

يقول الشعراوي: «فالسماء لا تقع على الأرض والنظام محكم تمامًا، الشمس تطلع من الشرق، وتغرب من الغرب، والقمر والنجوم تسير في منتهى الدقة والإبداع...فإن أردتم أن تصلح حياتكم، وأن تستقيم أموركم كما استقامت هندسة السماء والأرض فخذوا الميزان من السماء في أعمالكم واتبعوا القول الحق: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)[1]»[2]

ويعود الشعراوي بعد عرضه لهذه الآيات السابقة بدعوة جمهوره إلى اتِّبَاعِ منهج الله – تعالى – الذي بحكمته سبحانه وتقديره – جَلَّ في علاه – يتزن وينتظم ويستقيم نظام الكون كله، لذا فحري بالمدقق فيه أن يستعمل منهج الله في أموره كلها. يقول

---

[1] سورة الرحمن، الآيات: ٧-٩.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٨-١٠٧٩.

الشعراوي: «إنك إن عملت في الحياة بمنهج الله الذي خلق الحياة، فإنَّ أمورك تستقيم لك كما استقامت الأمور العليا في الكون»[1]

ويستحضر الشعراوي من النص القرآني حديثه عن كوكب الأرض وغيره من الكواكب في نظامها واتساقها في لوحة الكون، وذلك كمثالٍ آخر يُقَوِّي به المضمون الذي يعالجه. يقول الشعراوي: «فالأرض لا تدور بعيدًا عن فلكها؛ لأنَّ خالقها قد قدر لها النظام المحكم تمامًا؛ ولهذا يقول الحق – سبحانه وتعالى – عن نظام الكواكب في الكون: (لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[2] ...اصنعوا ميزانًا في كل الأمور التي لكم فيها اختيار، حتى لا تطغوا في الميزان»[3]

وتلكم الأمثلة التي ساقها الشعراوي من النص القرآني، كانت تدعيمًا لموضوع تطبيق التكليف الإلهي بالقتال بشكلٍ خاص، وتدعيمًا لتطبيق التكاليف الإلهية بشكلٍ عام، لذا يعود الشعراوي مجددًا إلى موضوع التكليف الإلهي بالقتال، والذي يُعد واحدًا من باقة التكاليف الإلهية، التي لو التزمها المؤمن المُكَلَّف لصَلُحَ حاله

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٩.

[2] سورة يس، الآيات: ٤٠.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٩.

وحال مجتمعه، فيعالج قضية فيما لو تقاتل فريقان كلاهما اختار مذهبًا مضادًا للآخر، وكلٌّ من المذهبين خارج عن المنهج الإلهي «فالحق سبحانه وتعالى يترك الفئتين للتقاتل والتناحر، ولأنه سبحانه ذو رحمة على العالمين، يُبْقِي عناصر الخير في الوجود، لعلَّ أحدًا يرى وينتبه ويتلفت ويذهب ليأخذها، فعندما تطغى جماعة يأتي لهم الحق بجماعة يردونهم، حتى تبقى عناصر الخير في الوجود، لعلَّ إنسانًا يأتي ليأخذ عنصرًا منها يحرك به حياته، وصاحب الخير إنما يأتي من فضل الله على العالمين»[1]

ومما لا شك فيه أنَّ هناك تأثرًا واضحًا من الشعراوي بفكر الشيخ/ طنطاوي جوهري[2]، وبالذات في معالجة الشعراوي السابقة، وربطه بين النظام التشريعي الإلهي للمُكَلَّفِين والنظام الإلهي الكوني، فقد قرأت عن فكر طنطاوي جوهري من خلال ما كتبه د/ محمد رجب البيومي حول آخر مقال نشره الشيخ/ طنطاوي جوهري في مجلة الرسالة، والذي يقول فيه الشيخ/ طنطاوي جوهري: «كيف يكون لهذه العوالم هذا الجدول المنظم، وتكون بينها هذه النسب

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٧٩-١٠٨٠.

[2] (طنطاوي جوهري) ولد سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م، وتوفي سنة ١٣٥٨هـ/١٩٤٠م.
الزركلي، الأعلام، ط. ثانية ج٣/ص٣٣٣-٣٣٤.

البديعة، ولا يكون للإنسان هذا النظام! كلَّا، العقل ينكر هذا، ها هنا تحل مشكلة العالم، ها هنا عرفنا سبب النزاع المُقَام بين الأسرات والممالك، هاأنذا عرفت سبب الجمال في الحقول والسماوات ليلًا ونهارًا، فأمَّا أسباب الشقاء والنزاع بين الإنسان، فالبحث جار فيه»[1]

ولعلَّ الشعراوي بحث ونظر وأعطانا النتيجة...وهي كما أشار من قبل بضرورة التزام المُكَلَّفين بالمنهج الإلهي، حتى تستقيم حياتهم، وتنضبط مثل انضباط الكون من حولهم، دون خلل أو فساد في نظامه، ولعل ما قرأناه من كلام الشيخ/ طنطاوي جوهري يتجلى لنا تأثر الشعراوي بفكره، وبنظرته العميقة في الكون، وأنه على الإنسان أن يتأمل ما فيه من آيات بينات سيقت له ليتفكر فيها، وهي دعوة القرآن الدائمة للإنسان، يقول تعالى: (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ)[2]

---

[1] مجلة الرسالة، ١٩٣٩/٣/٢٠م نقلًا عن ملحق مجلة الأزهر، العدد الصادر لشهر ذي الحجة ١٤٢٤هـ، بقلم الأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومي عن الشيخ/ طنطاوي جوهري رائد التفسير العلمي الحديث، انظر المقدمة للدكتور/ محمد رجب البيومي ص٣-٢٤.

[2] سورة سبأ، الآية: ٩.

ولا بُدَّ أن نشير إلى أنَّ مسلك الجوهري في التفسير، وهو الربط بين النظام الكوني وبين النظام التشريعي الإلهي لخلقه، مسلك جديد، وتصدى لهذا المسلك في التفسير فريق من العلماء[1]، فتلك النظرة من الجوهري التي تأثر بها الشعراوي هي من صميم النظر العميق في التكاليف الشرعية، وعلاقتها ليس بالمُكَلَّف فحسب، بل كذلك بالكون من حوله؛ وذلك لأنَّ التكاليف الشرعية منظور فيها إلى المكان وإلى الوقت، فالصلاة مرتبطة بأوقاتٍ محددة يعرفها المرء بالشمس والصيام...بالهلال، والحج بالأزمنة والأمكنة ربما ليدقق الإنسان في كون اللّه – تعالى – حوله فيتعظ به، ويصلح من حياته ما قد يطرأ عليها من فساد.

---

[1] لقد ذكر الشيخ د/ محمد حسين الذهبي في كتابه «التفسير والمفسرون» أنَّ «تفسير الجواهر للشيخ/ طنطاوي جوهري، لم يلقَ قبولًا لدى كثير من المثقفين...ويظهر لمن يتصفح هذا التفسير أنَّ المؤلف – رحمه اللّه – لاقى الكثير من لوم العلماء على مسلكه في تفسيره، مما يدل على أنَّ هذه النزعة التفسيرية لم تلقَ قبولًا لدى كثير من المثقفين...ولعلَّ هذا المنزع في تفسير القرآن الكريم هو السر الذي من أجله صادرت المملكة العربية السعودية هذا الكتاب، ولم تسمح بدخوله إلى بلادها» محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج٣/ص٣٧٢، ط. مكتبة وهبة.
وأود أن أشير إلى مسألة مهمة، وهي أنَّ الشعراوي قد تأثر ببعض أفكار الجوهري في التفسير، وليس في مسلكه العام في التفسير، الذي اعترض عليه فريق من العلماء.

ملخص الفصل:

وخلاصة القول - في هذا الفصل - أنني قد عرضتُ لأحد الموضوعات التي تناولها الشعراوي الخاصة بالتكليف الإلهي، وهو «موضوع التكليف الإلهي بالقتال من خلال قصة طالوت وداود وجالوت» وذلك من خلال خواطره التي تناولت قصة الملأ من بني إسرائيل، الذين طلبوا من نبيهم أن يعين لهم مَلِكًا قائدًا عليهم؛ ليقودهم في قتالهم، وهي القصة التي حكى عنها القرآن في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ

مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)[1]

ولقد استوقف الشعراوي من خلال القصة السابقة، موضوع التشريع الإلهي للقتال وآدابه، ولقد استقى أفكاره حول هذا الموضوع من الإشارات التي لاحت بها هذه القصة، وطاف من وحيها في سور القرآن الكريم يستجمع منها الآيات يدعم بها خواطره حول هذا الموضوع، وذلك من خلال معالجته للعناصر التالية:

(أ) بعض آداب التكليف بالقتال في سبيل الله تعالى:

لقد تناول الشعراوي في هذا العنصر، ضرورة امتحان القائد لجنوده قبل الخوض بهم في ميدان القتال، فعرض الشعراوي

---

[1] سورة البقرة، الآيات: ٢٤٦-٢٥١.

لسلسلة الابتلاءات التي تعرَّض لها جنود طالوت قبل خوض المعركة، وهي الابتلاء بالشرب من النهر، والابتلاء الآخر عند رؤية الأعداء، فوصف الشعراوي حال هذه الفئة المؤمنة، وما تحلَّت به من الآداب الإيمانية التي مكنتها من الثبات في ميدان القتال، وحققت لها النصر، حيث تحلت هذه الفئة المؤمنة بأدب الثقة بالله – تعالى – واليقين بلقائه...وكذلك بأدب الصبر على مشقة القتال، وأردف هذا بما يؤكد ضرورة امتثال هذه الآداب من خلال استحضار الشواهد القرآنية، وذلك دون إسهاب، فهو لا يجمع جمعًا حصريًّا للشواهد، بينما يختار من جملتها ما يراه مناسبًا؛ لأنه يدلي بخواطره من خلال وسائل الإعلام.

(ب) صور الدفع الإلهي، والهدف من تشريع القتال:

لقد عالج الشعراوي من خلال هذا العنصر أهمية الدفع الإلهي وفائدته في حفظ التوازن في المجتمع الإنساني، ولقد قرن توضيحه بين إظهاره لصور الدفع، وتحقيق حيثيات الدفع وأسبابه، ولقد أشار الشعراوي إلى أنه من خلال استقراء التاريخ ماضيه وحاضره، يتضح أنَّ الذي يعمر الكون هو أن يتواجد فيه قوى متكافئة (ودَلَّلَ على هذا من خلال بعض الشواهد التاريخية) وهو ما أسماه بوجود الثنائية في القوى على مدار التاريخ لحفظ الاستقرار في العالم،

ولقد ذكر بأنَّ من صور الدفع الإلهي أنه مرة يكون الدفاع بأن تكر لتفر، واستحضر لتدعيم هذا بعض الشواهد من القرآن الكريم، ومن سيرة النبي ﷺ.

وذكر أنه قد يكون من صور الدفع أن تقاتل بالفعل، وهذا مثل قتال طالوت لجالوت، وحدثنا عن أهداف وأهمية الدفع الإلهي في الحفاظ على الأمن العام، وكذلك الحفاظ على دور العبادة، التي هي راعية القيم في العالم، واستحضر من النص القرآني ما يدعم هذا ويؤكده، وأكد أنَّ للدفع أسبابًا لا بُدَّ وأن تتوفر، وهي سيادة الفساد والظلم، واستدل على ذلك من واقع سيرة النبي ﷺ، ولقد أراد من وحي هذا الحديث أن يدلل على أنَّ شريعة القتال في الإسلام لها ضوابط تحكمها، وأنها ليست عملية همجية، ولهذا الكلام مدلوله في هذه الآونة، والتي وصف فيها الإسلام بما لا يتناسب وجوهره الأصلي، ومقاصد تشريعه.

وأشار الشعراوي إلى الأسباب التي من أجلها تطول المعارك في العصر الحديث، ومنها أنَّ القوى التي تتصارع كلاهما على باطل، ولو كان أحدهما على حق لدَعَّمَه اللّٰه تعالى، واستحضرَ ما يتوافق مع هذا من النص القرآني، ولقد استحضرتُ ما كتبه السيد محمد

رشيد رضا في الغرض من الحروب[1]، وكذلك ما كتبه كل من د/ محمد البهي[2] في ذلك، والشيخ/ محمد أبو زهرة.[3]

(ج) ربط الشعراوي بين النظام الإلهي الكوني، والنظام الإلهي التشريعي:

لقد انتهى الشعراوي في معالجة العنصر السابق إلى أنَّ السبب الذي يجعل المعارك تطول، هو أنَّ مهمة القتال خلت من أهدافها السامية، وهي نصرة الحق؛ ولذلك أصبح هناك خلل في المعارك، والذي من أجله تطول الحروب، ثم انطلق الشعراوي من هذه الفكرة يُحدثنا حول أنَّ انتشار الفساد والظلم في دنيا الناس، هو بسبب افتقار البشر لتطبيق التكاليف الإلهية، والتي منها التكليف بالقتال، وهذا مما يجعل للفساد انتشارًا.

ثم تطرَّق لمضمون أنَّ سيادة الشر تكون فيما أطلقت فيه يد الإنسان دون ضابط يحكمها، ويحكم منهج الله فيها، واتخذ

---

[1] السيد محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، انظر ص٢٧٦.

[2] د/ محمد البهي، القرآن...والمجتمع، انظر ص١٨.

[3] اللواء الركن/ محمود شيت خطاب، د/ عبد الحليم محمود، الشيخ/ محمد أبو زهرة، إرادة القتال والجهاد في سبيل الله.

الشعراوي مثالًا حيًّا على ذلك، وهو النظام الكوني وانضباطه واستقامته نظرًا لسيره وفق النظام الإلهي، وجعل في نظيره النظام التشريعي الإلهي لخلقه، محاولًا بهذا الأسلوب حفز جمهوره على الالتزام بالتكليف الإلهي في كل فروعه وصوره، ومنها التكليف الإلهي بالقتال، وذلك من منطق أنَّ الله – تعالى – شرع للإنسان ما يحفظ عليه استقراره، كما جعل الكون من حوله منظمًا مستقرًّا.

وأخذ يستحضر من النص القرآني بعضًا من الصور الكونية، التي عرض لها القرآن الكريم، والتي تعبر عن هذا المضمون.

●●●